

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۖ أَوْ لَا يَذْكُرُ
الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 66 - 67]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُمَا:

غرور الكافر
يصرفه عن
الحقائق الثابتة
من جلال القدرة

بعد أن رتب التنزيل الحكيم على الآية الرابعة والسّتين، وعلى قوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، الأمرين: ﴿فَاعْبُدْهُ وَأَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾، وهو أقصى ما يمكن أن يُرتب على ذلك؛ لأنّ نبينا ﷺ أكمل الكمل من الأنبياء والرسل، فكان في ذلك دحض على لكل شرك وكفر ومتعلقاتهما؛ بين أنّ من العباد من تجهل ذلك كله من المترتب عليه، فأنكر البعث، وهو ترتيب شيء على شيء لا يترتب عليه، وذلك يقتضي كل عجب ودهشة، والله أعلم.

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿أُخْرِجُ﴾: (خرج) يدور حول نفاذ من الحيّز أو الأثناء بتجمّع: كالورم من الجسم، والسحاب من جوف الأفق⁽¹⁾، وخرَجَ: برز من مقره أو حاله، سواء كان مقره داراً أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواء كان حاله حالة في نفسه، أو في أسبابه الخارجة، والإخراج أكثر ما يُقال في الأعيان، نحو: ﴿أَنكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: 35]⁽²⁾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

أيعجز الخالق
الذي أوجد من
العدم ثم قدر
على الإماتة أن
يُخرج مخلوقه
كرّة أخرى

قال الكلبي: نزلت في أبي بن خلف حين أخذ عظاماً باليةً يفنها، ويقول: "زعم لكم محمد ﷺ أَنَّا نُبْعَثُ بعدما نموت"⁽³⁾، إنّ الكفر والغرور يفعلان بصاحبهما فعل الطائش الهمج الذي يظن أن

(1) جبل، العجم الاشتقاقِيّ للؤصل: (خرج).

(2) الرّأغب، المفردات: (خرج).

(3) الواحدي، أسباب النزول، ص: 227.

الدُّنْيَا لَهُ، فَلَا مَمَاتَ بَعْدَ حَيَاةٍ، وَلَا حَيَاةَ بَعْدَ مَمَاتٍ، هَكَذَا تَسْوِيلَاتُ شَيَاطِينِهِمْ وَتَخْيِيلَاتُهُمُ الْبَاطِلَةَ، وَلَوْ رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ بَرَهَةً مِّنَ الزَّمَنِ مَعَ مَنْ غَبَرَ وَوَلَّى لَعَلَّمَ ذَلِكَ عِلْمَ يَقِينٍ، وَلَكِنْ أَنَّى لَهُ ذَلِكَ؟

❖ الإيضاح اللُّغَوِيُّ وَالتَّبْلَاغِيُّ:

نوع الواو ودلالاتها في ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ﴾:

الواو عاطفة من باب عطف القصة على القصة، قصة هذا المُنْكَرِ للبعث واستبعاد حدوثه على الأمر بالعبادة الخالصة لله تعالى والاصطِبار عليها؛ أي: أَنَّ الإنسانَ بين مُعْتَرِفٍ بِالْعِبُودِيَّةِ لِرَبِّهِ ﷻ، وبين مُنْكَرٍ لقدرته تعالى على الإيجاد بعد الموت وحصول البعث.

دلالة التَّعْبِيرِ بفعل القول مضارعًا:

التَّعْبِيرُ بالفعل المضارع دالٌّ على التَّجَدُّد والاستمرار واستحضار الصُّورَةِ الْعَجِيبَةِ الْغَرِيبَةِ، وتلك الأقوال المُنْكَرَةِ الَّتِي صَدَرَتْ قَبْلُ عَنْ هَذَا الْكَافِرِ، أَوْ لِإِفَادَةِ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مَوْجُودٌ وَمُسْتَمِرٌّ عِنْدَ كَثِيرٍ مِّنَ الْكَافِرِينَ⁽¹⁾، وَالْمُرَادُ هُنَا التَّعْجِيبُ مِنْ قَائِلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ الْمُنْكَرَةِ تَعْجِيبًا إِنْكَارِيًّا؛ فَقَدْ اعْتَقَدُوا ضِدَّ مَا قَامَتِ الْأَدْلَةُ عَلَى ثَبُوتِهِ، وَمَوْطِنُ التَّعْجِيبِ إِيْرَادُ التَّنْزِيلِ الْكَرِيمِ لِهَذَا الْقَوْلِ عَقِبَ الْاِسْتِدْلَالِ الْعَلِيِّ عَلَى صَحَّةِ الْبَعْثِ الَّذِي يَسْتَوْجِبُ عِنْدَ كُلِّ عَاقِلٍ اعْتِقَادَهُ، لَا إِنْكَارَهُ، فَضْلًا عَنْ اِسْتِمْرَارِ إِنْكَارِهِ وَدَوَامِهِ؛ مِمَّا تُنْبِئُهُ إِلَيْهِ صِيغَةُ الْمَضَارِعِ.

نوع (الْأَدَم) في ﴿الْإِنْسَنُ﴾ ودلالاتها:

(الْأَدَم) هنا للعهد؛ أي: الْإِنْسَانُ الْمَعْهُودُ بِقَوْلِهِ ذَلِكَ، وَهُوَ أَبِي بَن خَلْفَ، أَوْ لَجْنَسِ الْكُفَّارِ مُنْكَرِي الْبَعْثِ، وَعَلَيْهِ يَكُونُ مِنْ قَبِيلِ إِطْلَاقِ الْعَامِّ وَإِرَادَةِ الْخَاصِّ⁽²⁾.

الكفر والغرور
يفعلان
بصاحبهما فعل
الطائش الهمج

مِنَ الشُّذُوذِ
اعتقاد ما قامت
الأدلة على
بطلانه

المانع الأكبر من
قبول الحق هو
الغرور والكبر

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 57 / 9.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 242 / 11.

وقد تكون لجنس الإنسان، ومعلومٌ في لغة العرب إسنادُ الفعل إلى المجموع، كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف: 77]، والعاقِرُ واحدٌ لكن لما ارتضى الجمعُ فعلتهم؛ عمَّهم الفعلُ، والمرادُ جنسُ الكافر المنكِر للبعث.

دلالة إسناد القول إلى ﴿الْإِنْسَنُ﴾:

أفاد التعريفُ في لفظ ﴿الْإِنْسَنُ﴾ الجنسَ، فيكون المرادُ الجنسَ بأسره كلَّهم، فإن قيل كلُّهم غيرُ قائلين بذلك، فكيف يصحُّ إسنادُ القول إلى أجناس الإنسان؟

فأما من حيث جواز هذا التركيب فلا نَّ هذه المقالة كانت موجودةً فيما هو من بعض جنسهم، فصَحَّ إسنادُها إلى جميعهم.

وأما من حيث المعنى فقد بين الإمامُ الرَّازِي أنَّ هذا الاستبعادَ الواقع من بني البشر موجودٌ ابتداءً في طَبْعِ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا أَنَّ بَعْضَهُمْ تَرَكَ ذَلِكَ الاستبعادَ المَبْنِيَّ على مَحْضِ الطَّبْعِ بالدَّلالةِ القاطِعةِ الَّتِي قَامَتْ على صَحَّةِ الْقَوْلِ به⁽¹⁾.

وقد يُقَيَّدُ تعميمُ القول للكلِّ بالإشارةِ إلى قَلَّةِ الْمُؤْمِنِينَ بالبعث على الوجه الَّذِي جاء به النَّبَأُ الْعَظِيمُ⁽²⁾.

معنى الاستفهام ودلالته في ﴿أَعْدَا مَا مِثُّ﴾:

أَخْرَجَ هذا الإنسانُ اعتقاده في صورة استفهام؛ لِيُفْهَمَ غايةَ ثِقَتِهِ واقتناعه بما يعتقد من إنكار وقوع البعث، ولذلك كان له أن يستبعد ذلك، ويتعجَّب منه بالاستفهام، بل إنَّه أتى "بالجملة المُسلَّطِ عليها الإنكارُ مُقْتَرَنَةً بلامِ الابتداءِ الدَّالَّةِ على توكيدِ الجملةِ الواقعةِ هي فيها؛ أي: يَقُولُ: لا يَكُونُ ما حَقَّقْتُمُوهُ من إحيائي في المُسْتَقْبَلِ"⁽³⁾.

مَنكِرُوا البعث
على كثرتهم جزء
دلَّ على عموم
الجنس البشري

قد يكون الباطل
أصلاً لا غرابة
فيه ولا عجب

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 242 / 11.

(2) الألويسي، روح المعاني: 117 / 16.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 143 / 16.

دلالة التعبير بـ (إذا):

تَرَدُّ (إذا) في الشَّرْطِ المقطوع بوقوعه وحصوله، وهي ظرف زمان مُتَضَمِّن معنى الشَّرْطِ، والعامل فيها أو متعلِّقها محذوف، دلَّ عليه قوله: ﴿أُخْرِجُ﴾، والتَّقْدِيرُ: (أإذا ما مِتُّ بُعِثْتُ؟) ولا يجوز أن يكون ﴿أُخْرِجُ﴾ هو عامل النَّصْب فيه لوجود اللَّام الفاصلة بين العامل والمعمول، وإنما دخلت (إذا) على المُتَيَقِّن وَقَوَّعُهُ، وهو الموت، دلالة على أَنَّ المُشَاهَدَ عِنْدَهُمْ غَيْرُ مُنْكَرٍ، لكنَّ غِبَاءَهُمْ في عدم قياس الغائب على الشَّاهِدِ مِنْهُمْ من إعمال العقل للاستدلال، فمَانِعُهُمُ الْغِبَاءُ وَالْإِسْتِكْبَارُ.

قياس الغائب
على الشَّاهد هو
مَنَاطُ الْإِيمَانِ

سرُّ إيلاء الظرف همزة الاستفهام في ﴿أَعْدَا﴾:

تَقَدَّمَ الظَّرْفُ في قوله تعالى: ﴿أَعْدَا مَا مِثُّ﴾ على ما بعده واقعاً بعدَ همزة الاستفهام الذي للإنكار؛ لِأَنَّ الْمُنْكَرَ كَوْنُ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَقَتَ الْحَيَاةِ؛ فَهَذَا التَّرْتِيبُ هُوَ الَّذِي يَصَوِّرُ حَرَكَةَ الْمَعْنَى الْمَقْصُودَةَ فِي الْآيَةِ؛ فَهُمْ يُنْكَرُونَ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ حَيَاةٌ، وَالْمَوْتُ سَابِقٌ عَلَى تِلْكَ الْحَيَاةِ الَّتِي يَقُولُ بِهَا الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ، ثُمَّ إِنَّهُ مَانِعٌ مِنْهَا، وَهُوَ آخِرُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْإِنْسَانِ، فَهَذَا كُلُّهُ قُدَّمَ عَلَى مَا بَعْدَهُ.

قد يُرْتَّبُ الْبَاطِلُ
أَفْكَارَهُ؛ لِيُقْنِعَ
بِهَا، وَتَنَى لَهُ
ذَلِكَ

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتها في ﴿أَعْدَا مَا مِثُّ﴾:

زِيدَتْ ﴿مَا﴾ فَاصِلَةً بَيْنَ ﴿أَعْدَا﴾ و﴿مِثُّ﴾، وَلَا يَجُوزُ لُغَةً أَنْ تَفْصِلَ بَيْنَ ﴿مِثُّ﴾ و﴿لَسَوْفَ أُخْرِجُ حَيًّا﴾ - ؛ لِتَصْوِيرِ غَايَةِ اسْتِبْعَادِ وَقُوعِ الْبَعْثِ بِهَذَا الْفَاصِلِ، وَمَا فِيهِ مِنْ شَدِيدِ الْإِبْهَامِ، وَمَدَّ الْأَلْفِ، كَأَنَّ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ، كَهَذَا الْإِبْهَامِ، لَا يُبَيِّنُ عَنْ شَيْءٍ مُحَدَّدٍ، فَيَكُونُ اسْتِعْمَالُ ﴿مَا﴾ تَمْكِينًا وَتَوْكِيدًا لِإِنْكَارِ الْبَعْثِ الَّذِي هُوَ بَعْضُ دَلَالَاتِ الْاسْتِفْهَامِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الإيمان بالغيب
من أعلى مراتب
الإيمان

نكتة إيثار (سوف) على نظيرتها السين:

التَّعْبِيرُ بِالْحَرْفِ (سوف) في قوله ﴿لَسَوْفَ أُخْرِجُ حَيًّا﴾ إِمْعَانٌ

إرادة المماثلة
والتأخير طبيعة
عند التكرين

في إنكار وقوع البعث؛ لأنَّه يدلُّ على التأخير والتَّنْفِيس، وزمَّانُه أبعدُ من زمان السَّين؛ لما فيها من إرادة التَّسْوِيف، ومنه قيل: فلانٌ يَسُوِّفُ فلاناً، و"سوف تُستعملُ كثيراً في الوعيد والتَّهْدِيد، وقد تُستعملُ في الوعد، والأكثر في السَّين الوعد، وتأتي للوعيد"⁽¹⁾، كما أنَّ "سَوْفَ حرفٌ يُخَصِّصُ أفعالَ المضارعةِ بالاستقبال، ويُجَرِّدُها عن معنى الحال، ويقتضي معنى المماثلةِ والتَّأخير، واشتقَّ منه التَّسْوِيفُ اعتباراً بقول الواعد: سوف أفعلُ كذا"⁽²⁾ فلهذه الخصوصيات استُخدمت (سوف)؛ لكونها الأنسب للسياق.

دلالة اقتران سوف بالآدم:

أتى التَّنْزِيلُ الكريمُ بالجملةِ المصدَّرةِ بـ(سوف) في قوله: ﴿لَسَوْفَ أَخْرِجُ﴾ مُقْتَرَنَةً بلامِ الابتداء؛ للدَّلالة على تأكيد مضمون هذه الجملة على سبيلِ الحكاية عن القرآن أو الرسول أو أهل الإيمان، وهذا يعني غايةَ الرِّفْضِ لاعتقاد صحَّةِ البعث، بالجملةِ المُسَلَّطِ عليها الإنكارُ مُقْتَرَنَةً بلامِ الابتداءِ الدَّالَّةِ على تأكيدِ الجملةِ الواقِعَةِ هي فيها؛ أي: يَقُولُ: لا يَكُونُ ما حَقَّقْتُمُوهُ مِنْ إحيائي في المُسْتَقْبَلِ"⁽³⁾، وقد تكون "اللام في قوله: ﴿لَسَوْفَ﴾ مَجْلُوبَةٌ على الحكاية لكلام تقدَّم بهذا المعنى، كأنَّ قائلًا قال للكافر: إذا مَتَّ يا فلانُ؛ لسَوْفَ تُخْرَجُ حَيًّا، فقرَّرَ الكافرُ على الكلام على جهة الاستبعاد، وكرَّرَ اللام حكايةً للقول الأوَّل"⁽⁴⁾.

دلالة المضارع المبني للمفعول ﴿أَخْرِجُ﴾:

بُنِيَ فعلُ الإخراج هنا لما لم يُسمَّ فاعله للعلم به، وتعيُّنه؛ لأنَّ المُخْرِجَ والباعثَ مِنَ الموت هو الله تعالى، والفعل المضارع دالٌّ على

المُخْرِجُ والباعثُ
مِنَ الموت هو
الله تعالى

(1) الزَّركشي، البرهان: 4 / 283، 282.

(2) الزَّاغِب، المفردات: (سوف).

(3) ابن عاشور، التَّحْريِر والتَّنْويِر: 16 / 144، 143.

(4) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 4 / 25.

التَّجَدُّد والاستمرار واستحضار الصَّورة، ولاسيَّما الصَّورة العجيبة الغريبة مِنَ الإخراج والبعث بعد الموت، وورد كذلك للإشارة إلى أَنَّ الخروجَ بفعل قوَّةٍ قادِرةٍ ظاهرةٍ، وفي حذف الفاعل بملاحظة المتكلم المنكر للبعث إشعارٌ بهروبه مِنَ الحقِّ الَّذي قد يُسيطر عليه لو نطق باسم الجلالة، وفيه أيضًا الفرارُ مِنَ الوقوع في التناقض؛ لأنَّه لو نطق باسم الجلالة لكان دالًّا على إمكان وقوع البعث؛ لأنَّ هذا الإنسان يُقرُّ بخالقِيَّة الله تعالى، قال الله ﷻ: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: 87].

نكتة حذف متعلِّق ﴿أُخْرِجُ﴾:

حُذِفَ متعلِّق الفعل ﴿أُخْرِجُ﴾ هنا إيجازًا واختصارًا لكونه معلومًا، والمراد: أُخْرِجُ مِنَ القبر، أو أُخْرِجُ حيًّا من الأرض بعد طول رُقَادٍ فيها، أو أُخْرِجُ مُخْرَجًا فيه الحياة، وفي غياب متعلِّقه إشعارٌ بعدم الخروج أصلًا، وهذا إمعانٌ في تقرير عدم الخروج حيًّا، فالحذف تمكينٌ لإنكار وقوع البعث.

سرُّ إيتار ﴿أُخْرِجُ﴾ على (أُبْعَثُ):

المرادُ مِنْ قوله: ﴿أُخْرِجُ﴾ الخروجُ مِنَ الأرض، أو مِنْ حال الفناء، أو هو مِنْ قولهم: خرج فلانٌ عالمًا، وخرج شجاعًا؛ إذا كان نادرًا في ذلك، يريد: سأُخْرِجُ حيًّا نادرًا على سبيل الهزُّو⁽¹⁾، والبعث: إثارة الشيء وتوجيهه، يُقال: بَعَثْتُ فانبَعَثَ، ويختلفُ البعثُ بحسب اختلاف ما عُلقَ به، فَبَعَثْتُ البعيرَ: أثرتُه وسيرتُه، وقوله ﷻ: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 36]؛ أي: يخرجُهم، وَيُسَيِّرُهُم إلى القيامة⁽²⁾، وإنَّما عبَّرَ بـ ﴿أُخْرِجُ﴾ لحكاية الإنكار المبالغِ حتَّى إنَّه لَيُتَحاشى ذكرَ لفظ البعث.

الإبلاغُ في إنكار
البعث صورةً
لسيطرة دليل
صحته على المنكر

الموتى يُخْرِجُهُم
الله، وَيُسَيِّرُهُم
إلى القيامة
للمحاسبة

(1) الرَّمْخَشَرِيُّ، الكشَّاف: 2/ 517.

(2) الزَّائِب، المفردات: (بعث).

سرُّ التَّقْيِيدِ بِالحَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿حَيًّا﴾:

الباطل لا
يتحاشى من
إعلان مذهبه

قوله: ﴿حَيًّا﴾ حال مؤكدة لفعل الخروج؛ لأنَّ من لوازم هذا الخروج أن يكون حيًّا؛ أي: للعرض والحساب، فالله سبحانه يبعثهم، ويحييهم للمثول بين يديه لرفع المظالم، وهذه الحال ذروة حركة معنى إنكار البعث في الآية.

الغرض من الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾:

من الإحسان
تذكير الإنسان
بأصله

المراد من الاستفهام هنا الإنكار والتعجب من ذهول الإنسان المنكر البعث عن خلقه الأول، وهذه الجملة "معطوفة على جملة ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾؛ أي: يقول ذلك، ومن النكير عليه أنه لا يتذكر أننا خلقناه من قبل وجوده"⁽¹⁾، وهي احتجاج خاطب الله تعالى به نبيه رداً على مقالة الكافر.

نكتة تقديم الهمزة على الواو في ﴿أَوَلَا﴾:

دعوة للوقوف
والتفكير في
الحالة الأولى
قبل الخلقة

الهمزة للاستفهام الإنكاري دخلت على الواو العاطفة المفيدة للجمع، عطفت ما بعدها على معطوف محذوف دل عليه ﴿وَيَقُولُ﴾، والتقدير: (أيقول ذلك، ولا يذكر خلقه الأول؟)، فأفادت الهمزة إنكار الجمع بين القول، وعدم الذكر الذي هو المعطوف عليه للإشارة إلى أن المستنكر بالذات هو عدم الذكر الذي هو المعطوف المذكور، وأن المعطوف عليه، وهو القول: إنما نشأ منه، فإنه لو تذكر أننا خلقناه من قبل، ولم يك شيئاً لم يقل ذلك.

دلالة النفي (لا) دون (لم) في ﴿أَوَلَا﴾:

الذي خلق من
عدم قادر على
الإيجاد والبعث
مرة أخرى

(لا) ترد للنفي، وهي تدخل على الأسماء والأفعال، وتعمل عمل (إن)، فتنفي ما أوجبه (إن)، فتشبهها في الأعمال، ويكثر حذف خبرها؛ إذا علم، وهي لنفي الجنس والعموم، وقد ترد بمعنى (لم)،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 144 / 16.

ولذلك اخْتُصَّتْ بالدُّخُولِ على الماضي، وتجيء مؤكدةً النَّفي في غير مَوْضِعِهَا الَّذِي تَسْتَحِقُّهُ، أَمَّا (لم) فهي لنفي المضارع وقلبه ماضياً، فمجيء النَّفي بـ (لا) ههنا لنفي عموم التَّذَكُّرِ ووقوعه من هذا المُنْكَرِ، وهي هنا أبلغُ مِنَ التَّعْبِيرِ بـ (لم) في نفي هذا التَّذَكُّرِ لمقام الإنكار والاستبعاد لأمر البعث، وأنَّ الَّذِي خَلَقَهُ مِنْ عَدَمٍ قَادِرٌ عَلَى إيجاده وبعثه مرَّةً أخرى، فـ (لا) تَفْتَحُ البابَ لِلْمُخَاطَبِ المُنْكَرِ للبعث أن يتذكَّرَ أصلَ نشأته في كلِّ وقتٍ، وهذا إحسانٌ إليه أيَّ إحسانٍ.

خصوص نفي التَّذَكُّرِ:

يتوجَّه هنا سؤالٌ، وهو كيفَ أَمَرَ تعالى الإنسانَ بالذِّكْرِ مع أنَّ الذِّكْرَ هو العلمُ بما قد عَلِمَهُ مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ تَخَلَّلَهُمَا سَهْوٌ والجوابُ: أنَّ المراد: (أَوَّلًا يَتَفَكَّرُ فَيَعْلَمُ) خصوصاً إذا قُرئَ ﴿أَوَّلًا يَذْكُرُ﴾ بالتَّشْدِيدِ، أمَّا إذا قُرئَ ﴿أَوَّلًا يَذْكُرُ﴾ بالتَّخْفِيفِ فالمراد: (أَوَّلًا يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ حَالِ نَفْسِهِ)؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَيًّا فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ صَارَ حَيًّا⁽¹⁾.

لكلِّ شيءٍ
أساسٌ يقومُ
عليه

والذِّكْرُ: تارةً يُقَالُ، وَيُرَادُ بِهِ هَيْئَةُ النَّفْسِ بِهَا يُمَكِّنُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَحْفَظَ مَا يَقْتَنِيهِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ، وهو كالحِفْظِ إِلَّا أَنَّ الحِفْظَ يُقَالُ اعتباراً بإحرازه، والذِّكْرُ يُقَالُ اعتباراً باستحضاره، وتارةً يُقَالُ لحضور الشَّيْءِ الْقَلْبَ أَوْ الْقَوْلَ، ولذلك قِيلَ: الذِّكْرُ ذِكْرَانِ: ذِكْرٌ بِالْقَلْبِ، وَذِكْرٌ بِاللِّسَانِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ضَرْبَانِ: ذِكْرٌ عَنْ نَسْيَانٍ، وَذِكْرٌ لَا عَنْ نَسْيَانٍ بَلْ عَنْ إِدَامَةِ الحِفْظِ، وَكُلُّ قَوْلٍ يُقَالُ لَهُ: ذِكْرٌ، أَمَّا الْعِلْمُ فَإِدْرَاكُ الشَّيْءِ بِحَقِيقَتِهِ، وَذَلِكَ ضَرْبَانِ: أَحَدُهُمَا: إِدْرَاكُ ذَاتِ الشَّيْءِ، وَالثَّانِي: الْحُكْمُ عَلَى الشَّيْءِ بِوُجُودِ شَيْءٍ هُوَ مَوْجُودٌ لَهُ، أَوْ نَفْيِ شَيْءٍ هُوَ مَنفِيٌّ عَنْهُ⁽²⁾، وَمِنْ هُنَا كَانَ التَّعْبِيرُ بِالذِّكْرِ أَوْسَعَ وَأَنْسَبَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 242 / 11.

(2) الزَّائِبُ، الْفُرْدَاتُ: (ذِكْرٌ، عِلْمٌ).

بمقام الإنكار الوارد من هذا المنكر، وأشمل في أداء المعنى المراد من الرد عليه وإحجامه ومجآته بالدلائل الدامغة والبراهين القاطعة. وإنما عبّر بالتذكّر؛ لأنه أساس التفكير والعلم، وما جرى في هذا الطريق من المعنى؛ فهذا الذي بالغ في إنكار وقوع البعث في الآية السابقة لم يكن عنده أساس ما يتقده من هذا الإنكار، والآية بهذا الاستفهام تلفته إليه، وتنبهه عليه، وهذا رحمة ولطف به.

تنوع القراءات في ﴿يَذْكُرُ﴾، وأثره على المعنى:

للقرآن بلاغة
خاصة به

قرأ بإسكان الذال والتخفيف نافع وابن عامر وعاصم إشارة إلى أن أدنى ذكر من هذا يرشد الإنسان إلى الحق، وقراءة الباقيين ﴿يَذْكُرُ﴾ بفتح الذال والكاف وتشديدهما يشير إلى أنه لاستغراقه في الغفلة يحتاج إلى تأمل شديد⁽¹⁾، فالقراءتان أحاطتا بحال المنكر وحال ما يكره؛ ومثل هذا المبالغ في إنكاره يفتقر إلى تذكر عميق وطويل، وهذا ضرب من الإيجاز الخاص بالقرآن، وتشديد ﴿يَذْكُرُ﴾ أصله: يتذكر أدغم التاء في الذال لقرب مخرجهما.

دلالة التعبير بالفعل ﴿يَذْكُرُ﴾:

النظر في الماضي
يفضي للاعتبار

الفاعل المضارع دال على التجدد والاستمرار مع استحضار الحالة الماضية والصورة الغريبة العجيبة لهذا التذكر، وعلاقته بالتفكير والنظر في أنه إذا خلق من قبل لا من شيء، فجائز أن يعاد ثانيًا.

سر إظهار لفظ ﴿الْإِنْسَانُ﴾ في موضع الإضمار:

الإنسانية من
دواعي التفكير
لما خصهم الله
تعالى به من
العقل

والإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير، والإشعار بأن الإنسانية من دواعي التفكير فيما جرى عليه من شؤون التكوين المنحية بالقول المذكور، وهو السر في إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان⁽²⁾، وفي إظهاره شديد تعجب من شأنه

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 318، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 221.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 274.

وحالهِ، فهذا المخلوق صار له شأنٌ وحالٌ، فهو يقولُ، ويُرَدُّ عليه، إلخ، وقد كان من قبلُ عَدَمًا.

نوع اللّٰم في ﴿الْإِنْسَنُ﴾ ودلالاتها:

اللّٰم في ﴿الْإِنْسَنُ﴾ يجوز أن تكون للجنسيّة؛ إذا كان المرادُ بها جنسَ الكفرة الذين قالوا بَعْدَم البعث، ويجوز أن تكون للعهد؛ أي: الشّخص المعهود بقول ذلك، وهو أبي بن خَلَف الجُمَحِيّ، فهو معيّن مقصود بهذا، وعبر بالكلِّ إدخالاً لكلِّ من يقول بقوله في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

سرُّ الإسناد في ﴿أَنَا خَلَقْتُهُ﴾:

ورد الإسنادُ إلى ضمير المتكلّم بضمير العظمة تعظيماً وتشريفاً وبياناً لقدرته ﷻ في إيجاد الخلق ولا مُشاركَ له في ذلك، ولا ندَّ ولا نظيرَ له يمكنه فعل ذلك، وهذا أقوى ردٌّ على هذا المنكر، فهذه القوّة بنون العظمة تواجه إبلاغه في إنكار وقوع البعث في الآية السّابقة.

فائدة الإطناب بقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾:

ورود قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ هنا تتميم، وهو أن يُؤتى في كلام لا يوهمُ خلافَ المقصودِ بفضلةٍ مُبالِغةٍ في تأكيد بيان خلق الإنسان أوّل مرّة، ثمّ إعادته بعد موته وبعثه، والمعنى: مِنْ قَبْلُ ألا يوجد ثمّ كان، فكما أوجدناه قَبْلُ ذلك؛ نعيدهُ عوداً آخرَ بعد مماته؛ إذِ المعنى - على الجملة دون الكشف عن المطلوب سياقاً - يمكن أن يتمّ بدون قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، ولا يوهمُ تركُّه خلافَ المقصودِ، وهو فضلةٌ زيدت مُبالِغةً في الردِّ على هذا المنكر، ولا ريبَ في أنّ الإبلاغ بهذا التّتميم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يواجهُ حالةَ المبالغة في الإنكار في الآية السّابقة، فالردُّ قوّةً وضعفاً يكونُ بحسبِ الشُّبهةِ وأدائها قوّةً وضعفاً.

موقعُ جملة ﴿وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ ودلالاته:

هذا التّركيبُ جملةٌ حاليّةٌ وردت مبينةً للحالة التي كان عليها هذا المنكرُ قَبْلُ وجوده في هذه الدُّنيا، وهي مزيد تأكيدٍ لحالة العَدَمِ

دعوة إلى كلِّ مَنْ
ينكرون البعث
قديماً وحديثاً

كلُّ ما عليهم
فعله أن يتذكّروا
حالتهم الأولى

التأكيد في بيان
خلق الإنسان
أوّل مرّة، ثمّ
إعادته بعد موته
وبعثه

الإمعان في
التوكيد للإمعان
في الإنكار

الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا قَبْلُ، أَفِيْعِزُّ مَنْ أَوْجَدَهُ مِنْ هَذَا الْعَدَمِ أَنْ يَعِيدَهُ مَرَّةً أُخْرَى؟ وبهذه الجملة يقوى الردُّ على الْمُنْكَرِ للبعث؛ وذلك مواجهة لمبالغته في الإنكار في الآية السَّابِقَةِ: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا﴾.

سرُّ حذف نون الكون:

الأمر بالطاعة
تكريم للإنسان

حُذِفَتْ نُونُ الْكَوْنِ المضارع في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ﴾ لغير علةٍ صرفيةٍ أو نحويةٍ، والأصل: (لم يكنْ)، وسرُّ الحذف بملاحظة النفي التَّنْبِيهِ على أدنى كون منفيٍّ؛ أي: (ولم يكُ أي شيء، ولا أدنى شيء)، وهذا إبلاغٌ في تقرير معنى جملة النفي، ويتبعه معنى تحقيره، وداعي ذلك من السياق إبلاغٌ هذا الإنسان في إنكار البعث بقوله: ﴿أِذَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا﴾؟ ونَبَّهَ البقاعي على معنى تمكين التَّحْقِيرِ بالحذف، فقال: "ولمَّا كان المقامُ لتحقيره بكونه عَدَمًا أَعَدَمَ مِنَ التَّعْبِيرِ عن ذلك ما أَمَكَّنَ إِعْدَامُهُ، وهو النَّوْنُ؛ لِتُنَاسِبِ العبارةُ الْمُعْتَبَرَةَ، فقال: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ أصلاً، وإنَّا بمقتضى ذلك قادرون على إعادته، فلا يُنْكَرُ ذلك" (1).

معنى ﴿شَيْئًا﴾، وسرُّ تنكيره:

التفكير في أصل
الخلقة يقرّر
إدراك قدرة
الخالق على
الإعادة

الشَّيْءُ هو الموجود أو أصله، والمعنى: (أنا خلقناه من قبل ذلك، ولم يكنْ موجوداً، أو لا أصلَ له في هذا الوجود)، والتَّنْكِيرُ هنا للتَّخْفِيفِ والتَّحْقِيرِ، ولهذا تعاضد التَّنْكِيرُ وحذف حرفِ النون في إبراز ذلك، قال البقاعي: "ولمَّا كان المقامُ لتحقيره بكونه عَدَمًا أَعَدَمَ مِنَ التَّعْبِيرِ عن ذلك ما أَمَكَّنَ إِعْدَامُهُ، وهو النَّوْنُ؛ لِتُنَاسِبِ العبارةُ الْمُعْتَبَرَةَ، فقال: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ أصلاً، وإنَّا بمقتضى ذلك قادرون على إعادته، فلا يُنْكَرُ ذلك" (2).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 222.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 222.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريم من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريم من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 31، 808 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-732-73-0

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 31: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريم من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-732-73-0

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»